﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: 42 - 43]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

مَـن لـم يشكُرِ المِنَّةَ الإلهيَّةَ نالَه عـذابُ السُّـنّـةِ الكونيّة

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة منَّةَ الله على النّاس في أنْ جعلَهم خلائفَ في الأرض، وما صدرَ عنهم من اتّخاذِ الأنداد بدلَ الاعترافِ بالحقِّ وعبادةِ الله الواحدِ الدّيّان، وأنَّ الله ﷻ هو الَّذي يحفظُ السّماوات والأرضَ برعايته المشاهَدةِ آثارُها، ناسبَ التّذكيرُ بما قالَه أولئك المشركونَ في السّابق، مِن قسمٍ يُنبئُ عنِ اعترافِهم بحقيقةِ الدّين، ووَعْدِهم بأنْ يكونوا أهدى من أهلِ الكتاب، وبيانِ موقفِهم عندَ تحقُّقِ ما أقسموا به، وبيانِ سببِ ذلك الموقفِ المتناقض، وهو الاستكبارُ في الأرض، ومكرُ السَّيِّئ، ثمَّ ذكّرهم بسنّة الأوَّلين، في إنزالِ العقوبة، وأنَّها سنّةٌ لا تتبدّلُ؛ ليَرتدعوا عن غيِّهم واستكبارِهم، فهو انتقالٌ من بيانِ المِنَنِ الكونيَّة، إلى بيانِ السُّننِ الكونيّة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُفُورًا﴾: أصلُ (نفر) يَدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[1]، يُقال: نَفَرَ يَنْفِرُ نُفورًا ونِفارًا: إذا فَرَّ وذَهَبَ، وانطَلَقَ مُسرِعًا بِقوَّةٍ، ومنه: نَفَرَ النّاسُ إلى العَدوِّ نَفْرًا إذا أسرَعوا في الخُروجِ؛ لِقِتالِهِ[2]، والنُّفورُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (نفر).

هُروبُ الوَحْشيِّ والدّابَّةِ بِجَزَعٍ وخَشْيَةٍ مِنَ الأَذَى، والمرادُ بالنُّفورِ في الآيةِ: الفِرارُ مِنَ الشَّيْءِ، وأُطلِقَ هنا على لازِمِهِ؛ وهو البُعْدُ[1].

2) ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾: أَصْلُ (كبر) الامْتِناعُ وعَدَمُ الانْقيادِ، يُقال: تَكَبَّرَ البَعيرُ إذا امْتَنَعَ ولم يَنْقَدْ[2]، والكِبْرُ والتَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ تتقاربُ، فالكِبر الحالةُ الَّتي يتخصَّص بها الإنسانُ من إعجابِهِ بنفسه، وذلك أنْ يرى الإنسانُ نَفْسَه أكبرَ من غيره، وأعظمُ التَّكبُّر التَّكبُّرُ على اللّه؛ بالامتناع من قَبول الحقِّ والإذعانِ له بالعبادة[3]، والاستكْبارُ: الامْتِناعُ عَن قَبولِ الحقِّ معاندةً وتكَبُّرًا[4]، ويُقالُ على وجهين؛ أحدهما: أنْ يتحرَّى الإنسانُ ويطلب أنْ يصيرَ كبيرًا؛ وذلك متى كان على ما يجبُ، وفي المكان الَّذي يجبُ، وفي الوقت الَّذي يجبُ فمحمودٌ، والثّاني: أنْ يَتشبَّع، فيظهرَ مِن نفسِهِ ما ليس له، وهذا هو المذمومُ[5]، والمقصود بالاستِكبارِ في الآية: ادِّعاء الكِبر من غيرِ استحقاقٍ، والسّينُ والتّاءُ للمُبالغة[6].

3) ﴿وَمَكْرَ﴾: أصلُ (مكر) يدلُّ على الاحتيالِ والخِداعِ[7]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[8]، والمَكرُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغَيرِ بطَريقٍ خَفيٍّ، وكذلك الكَيدُ والمخادعةُ، وهو نوعانِ؛ قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمن لا يَستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه؛ عقوبةً له؛ فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثّاني ممدوحٌ[9]، والمقصودُ بالمَكْرِ في الآية: إخفاءُ الأَذى، وهو سيِّءٌ مذمومٌ؛ لأنَّه مِنَ الغَدْرِ، وهو مُنافٍ للخُلُقِ الكريمِ، فوَصْفُه بالسَّيِّئ وصْفٌ كاشِفٌ لِما يحمِلُه مِن معاني السّوء[10].

4) ﴿يَحِيقُ﴾: أصلُ (حيق) نُزولُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، يُقالُ: حاقَ بهم الشَّرُّ يَحيقُ حَيقًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 36.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(3) الراغب، المفردات: (كبر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (كبر).
(5) الراغب، المفردات: (كبر).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/ 111.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(8) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (مكر).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مكر).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

وحيَقانًا وحُيوقًا[1]، إذا نزَلَ، وحاقَ: أَحاطَ، ثُمَّ خُصَّ الاستِعمالُ بِإحاطَةِ الشَّرِّ[2]، فالحَيق: ما حاقَ بالإنسان من مَكْرٍ أوْ سوءِ عمَل يعمَلُهُ، فيَنزِلُ ذلك به، وهو مُقيَّدٌ بالمَكْرِ والسّوءِ[3]، ومعنى ﴿يَحِيقُ﴾: يُحيطُ ويَنزِلُ.

5) ﴿تَبْدِيلًا﴾: أصلُ (بدل) قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُهُ، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ إذا غَيَّرتُهُ؛ وإنْ لَمْ تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ، وأَبْدَلْتُهُ: إذا أَتَيْتَ لَهُ بِبَدَلٍ، وحقيقتُه: أنْ تُغيِّرَ الصّورةَ إلى صورةٍ أُخرى، والجوهرةُ بعَيْنِها[4]، والتَّبديل في الآية معناه: جَعْلُ شيءٍ بدلًا عن شيءٍ آخَرَ.

6) ﴿تَحْوِيلًا﴾: (حول) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَحَرُّكٌ في دَوْرٍ[5]، والتَّحويلُ: مَصْدَرُ حَوَّلْتُ الشَّيْءَ عنِ المَوْضِعِ تَحْويلًا وحَويلًا إذا نَقَلْتَهُ مِن مَوْضعٍ إلى مَوْضِعٍ، وأَزَلْتَهُ عنِ الأَوَّلِ إلى غَيْرِهِ[6]، ومنه: حَوَّلْتُ الرِّداءَ إذا نَقَلْتُ كُلَّ طَرَفٍ إلى مَوْضِعِ الآخَرِ، والحائلُ: كلُّ شَيْءٍ يَتَحرَّكُ مِن مَكانِه، أو يَتَحوَّل مِن مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ، ومِن حالٍ إلى حالٍ[7]، والحَوْلُ: الحَرَكة، يُقال: حالَ الشَّخصُ: إذا تَحَرَّكَ[8]، وحقيقةُ التَّحْويل في الآية: نَقْلُ الشَّيءِ من مكانٍ إلى غيرِهِ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُخبرُ الآيةُ الكريمة بما صدر عن مُشركي العَرَبِ بأنَّهم أقسَموا باللّهِ مُجتَهدينَ في أيْمانِهم، وبالغوا فيها أشدَّ المبالغة: لئنْ جاءَهم مِنَ اللّه رسولٌ يُنذِرُهم بأسَه ليكونُنَّ أسلكَ لطريق الحقِّ، وأشدَّ قبولًا له مِن أيِّةِ أمَّةٍ مِنَ الأُمم الَّتي خَلَت مِن قبلِهم، فلمّا جاءَهم مُحمَّدٌ ﷺ نَذيرًا ما زادَهم مجيئُه إلّا نُفورًا مِنَ الحَقِّ وضَلالًا إلى ضَلالِهم[10]، وسببُ

(1) ابن دريد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حوق).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (حوق)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 146.
(3) جعفر شرف الدين، خصائص السور: 5/ 30.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حول).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حول).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حول).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حول).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 392، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 358، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 559، والمراغي، تفسير المراغي: 22/ 139.

نفورِهم الاستكبارُ في الأرضِ عنِ الإيمانِ به، ومَكرُ السّيِّئ بالنّاسِ، فقد خَدَعوهم، وزيَّنوا لهم الباطِلَ؛ ليَصُدّوهم عنِ الحَقِّ، ولا يَنزِلُ سوءُ المَكرِ إلّا بأهلِه، فهل يَنتَظِرُ هؤلاءِ المُشرِكونَ إلّا عادةَ اللّهِ الجاريةَ في الأُمَمِ السّابِقةِ في إهلاكِهم في الدُّنيا على كُفرِهم بالحَقِّ؟ فلن تَجِدَ يا محمَّدُ ﷺ لطريقةِ اللّهِ الَّتي قضاها وحَكَم بها تبديلًا لها، بل هي سُنَّةٌ ماضيةٌ، وعادةٌ جاريةٌ، فلا بُدَّ أنْ يُعذَّبَ هؤلاءِ المُشرِكونَ؛ إنِ استمَرّوا على باطِلِهم؛ ولنْ تجِدَ لهذه العادةِ تحويلًا[1].

الوعودُ الكاذبةُ سرابٌ وإنْ أُحيطَتْ بأعظمِ الأَيْمان

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ للعطف، والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها من أخبارِ ضَلال المُشركينَ في شأنِ الرّبوبيَّة وفي شأنِ الرِّسالة والتّديُّن، وأنَّ ما حُكي فيها هو من ضَلالاتِهم ومُجازفتِهم[2]، والعطفُ هو على مجموعِ الأخبارِ السّابقة، للتّذكيرِ بما قاله المشركون قديمًا، وأنَّهم نقضوا كلامَهم وأقسامَهم بالإيمانِ بعد أنْ حقّقَ اللّه مطلوبَهم ببعثة الرّسولِ ﷺ من أنفُسِهم، وبهذا يكون كفرُهم مُخالفًا للعدل، ومُخالفًا لما صدرَ عنهم من أقوالٍ سابقة، أو الواوُ للاستئناف[3] توطئةً لتقريرِ سُنّة اللّه تعالى في معاملةِ المُكذِّبين.

العطفُ لبيانِ سُنّةِ اللّهِ في المُكذِّبين، والاستئنافُ لتقريرِ تلك السُّنّة

دلالةُ استعمالِ لفظِ القَسَمِ:

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مُفردة (القَسَم) دونَ مُرادفاتها في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ عظيمِ اهتمامِهم بالمُقْسَمِ عليه؛ لأنَّ القَسَمَ مأخوذٌ مِنَ القَسامة؛ وهي الأيمانُ تُقسَّم على أولياءِ

العبرةُ في تصديقِ الأفعالِ للأقوالِ لا مجرَّدُ إرسالِ الأقسام

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 393، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 508، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 358.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 331.

(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 22/ 285.

المقتول؛ إذا ادَّعَوا دمَ مقتولِهم على ناسٍ اتَّهموهُم بهِ؛ فالقسمُ ألصقُ بالجماعةِ على هذا؛ ولذلك أُسنِدَ الفعل إلى الجماعةِ؛ فكأنَّهم في حالةِ مواجهةٍ وخصومةٍ شديدةٍ؛ معَ مَن أقسموا لهم بأن يكونَ كيتَ وكيت إنْ جاءهم نذيرٌ، فالفعلُ يُبيِّن حالَهم عند عقدِ الأيمان، وأنَّهم تلفّظوا بتلك الألفاظِ، وآثرَ النّظمُ مادّةَ (القسم) على (الحلف)؛ لأنَّ القسم غالبًا يكون في الصِّدق، فكانت أيمانُهم في تلك الأوقات مقرونةً بالتّصديق، لكنَّهم غادروا تلك الأيمانَ بمجرَّد بعثةِ الرّسولِ ﷺ، ممّا يدلُّ على مدى النّفورِ بعدَ حالةِ الوعد الصّادق، الَّذي أخذوه على أنفُسِهم.

نكتةُ التّعبير بصيغة الماضي:

التَّذكيرُ بما كانَ سابقًا لبيانِ زَيفِ ما وقع حاضرًا

نُظِم التّعبيرُ بلفظِ القَسَم في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ فعلًا ماضيًا؛ لأنَّ القسمَ قد صدرَ عنهم في الماضي، والقرآنُ يذكرُ حكايةَ ذلك، والظّاهر أنَّه صدَر عنهم "في مَجاري المُحاورة أوِ المفاخرةِ بينهم وبينَ بعضِ أهل الكتاب مِمَّن يَقْدُمُ عليهم بمكّةَ، أوْ يَقْدُمون هم عليهم في أسفارِهم إلى يثربَ، أوْ إلى بلادِ الشّام"[1]، والقرآنُ يحكي عنهم ما صدَر منهم؛ لإقامةِ الحُجّة عليهم، وبيانِ زَيْفِ سادةِ المُشركينَ أمامَ أتباعِهم.

دلالةُ استعمالِ (باء القسم) ولفظِ الجلالة:

معرفةُ الحقِّ قبلَ وقوعِه ميدانُ الادّعاء الكاذبِ في اتّباعِ الحقِّ عند وقوعِه

قولُه تعالى ﴿بِٱللَّهِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بالفعلِ (أقسموا) في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، والباءُ باءُ القَسَم، ومعنى الإلصاقِ لا يُفارِقُ الباءَ؛ على ما عليهِ سيبويهِ وكثيرٌ مِنَ المُحقِّقينَ؛ فتفيدُ هنا امتلاءَ أفواهِهم بالقسم باللّه؛ النّاتجَ عنِ امتلاءِ قلوبهم بالمُقْسَم به؛ دلالةً على شدّةِ حرصِهم واهتمامِهم بالمُقْسَم عليه، وهذه الدّلالةُ حاصلةٌ بكونِ المُقْسَم به اسمَ الجلالةِ الأعظم دون غيرِه مِمّا يدَّعون له

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 330.

الألوهيَّة؛ "والقَسَمُ بينَ أهلِ الجاهليَّةِ أكثرُه باللّهِ، وقد يُقْسِمون بالأصنامِ وآبائِهم وعُمرِهم؛ والغالبُ في ذلك أنْ يقولوا: واللّاتِ والعُزَّى"[1]، واسمُ الجلالة هو الأنسبُ بقوله: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ لأنَّ النّذير إنَّما يَجيئُهم مِن قِبَل اللّه خالقِ السَّماوات والأرضِ؛ ويُؤنسُ بذلك أنَّ "هذه الآية وغيرها، وما يُؤْثَرُ مِن تنصُّر بعضِ العربِ ومِن اتِّساعِ بعضِهم في التَّحنُّفِ يدلُّ على أنَّهم كانوا يعلمونَ رسالةَ الرُّسُلِ"[2]، وهكذا أفادَ إظهارُ اسمِ الجلالة وإيثارُه على القسَم بالأصنام مَدى رَغبتهم القويّةِ في ظهورِ رسولٍ من بينِهم يتّبعونَه.

دلالةُ استعمالِ لفظ الجَهْد:

جَهْدُ الأيمانِ شأنُه المفاخرةُ لا النُّزولُ على الحقِّ

جاء استعمالُ لفظ (الجَهد) في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ حكايةً عن صَنيعِ المشركينَ؛ للدّلالةِ على غايةِ تهيُّئِهم لقَبول الرَّسولِ النّذيرِ ورسالتِه، وعلى ما هو أصلٌ لذلك؛ وهو غايةُ عظَمةِ الرَّسولِ والرِّسالةِ؛ فبذلُهُم ما في وُسْعِهم وما هو فوقَ ذلك حتَّى شقّوا على أنفسِهم صورَةٌ لذلكَ، ولِعُلوِّ نَبْرةِ الفخرِ؛ حين دعا بعضُ أهلِ الكتابِ قريشًا إلى دينِهم؛ والإبلاغُ في ذلك والاحتشادُ له بكل ما يُمكن مِن سيما العربِ، وفي إضافةِ الجَهد إلى الأَيمان استعارةٌ بالكناية؛ إذ يدلُّ على تشبيهِ الأيمانِ والأقسامِ بذاتٍ يقومُ بها الجهدُ نتيجةَ العمَلِ الكثير، والغرضُ منها تصويرُ مَدى علوِّ صوتِهم بتلك الأيمانِ والأقسام، حتَّى أصابَهم الجهدُ والإعياء، وفي ذلك كنايةٌ عن صدقِهم في الطّلبِ لمبعثِ رسولٍ من أنفُسهم.

تصويرُ حالِ المشركين عند القسَمِ بيانٌ كاشفٌ لحقيقةِ صِدقِهم

أثرُ إعرابِ ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ في تجليةِ المعاني:

قولُه تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ منصوبٌ على المصدريَّةِ أوِ الحاليَّة،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 331.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 333.

وهو على الأوَّلِ صفةٌ بالمصدرِ أُضيفتْ إلى موصوفها؛ أي: وأقسموا باللّه قَسَمًا جهدًا، فـ﴿جَهْدَ﴾ نائبٌ عنِ المفعول المطلق المُبيِّنِ للنّوع؛ لأنّه صفةٌ لِما حقُّه أنْ يكونَ مفعولًا مطلقًا؛ وهو: ﴿أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ إذ هو جمعُ يمين؛ وهو الحلفُ، فهو مرادفٌ لـ: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾[1]، ففي الوصفِ بالمصدرِ دلالةٌ على قوة اتّصافِ الموصوفِ بالصِّفةِ، وفي الإضافةِ إبلاغٌ في بيانِ ذلك، وهذا كلُّه يُصوّرُ حالَ المشركينَ في المُحاورة والمُفاخرة مِن جهةٍ، ويدلُّ على عظيمِ ادِّعائهم ما هو عظيمٌ في نفسِه؛ ليوهِموا مُتلقّيهِم أنَّه كذلك في أبصارِهم وبصائِرِهم.

نكتةُ جمْعِ الأيمان:

كـثرةُ الأقسام بيانٌ لحقيقة المَرام

جاء التّعبيرُ بجمع (الأيمانِ) في قوله تعالى: ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ للدّلالةِ على كمالِ قَسَمهم في هذا الموقفِ؛ فهم يُكرِّرونَ الأيمانَ في تتابُعٍ يَشي بعظمةِ الرَّسول النَّذير ورسالتِهِ عندَهم.

علَّةُ الفَصْلِ:

التّصريحُ بالمُقْسَم عليه في الكلام دالٌّ على عنايةٍ والتزام

قولُه تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ بيانٌ[2] لقولِه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ ولهذا غابَ العاطفُ؛ فلم يقل: (ولئن جاءهم نذير)؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ، وكشفَ البيانُ للمقسَم عليه عن رغبةٍ جادّةٍ بتحصيلِه، والتزامٍ به في حالةِ وقوعه، ومن ثمَّ اعتُني بنقلِه بنصّه؛ ليكون حُجّةً عليهم عندَ الإنكار والتّكذيب.

دلالةُ التّأكيدِ بأسلوب القسم:

إعادةُ القسم مذكورًا ومحذوفًا إقامةٌ للحُجّة

أكَّد المشركونَ كلامَهم بأسلوب القَسَم؛ كما حُكيَ عنهم في قوله تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾، إذِ (اللّام) في (لئن) واقعةٌ في جوابِ قَسَم محذوفٍ، تقديره: واللّه، وموطّئةٌ للقَسَم بعدها؛ لأنَّ الجوابَ ما يأتي بعدَ الشَّرْطِ، و(إنْ)

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 331، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 299.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332.

شرطيَّةٌ، ونلحظ أنَّه لم يكتفِ النصُّ بفعل القسَم الظّاهر، فلم يقل: وأَقسَموا باللّه عندَ مجيء الرّسول ليكوننّ، بل عمدَ إلى إعادة القسَم محذوفًا، أي: أقسَموا قائلينَ واللّه لئن...الخ، وفي ذلك توكيدٌ للقسم يذكره مرّتينِ مذكورًا ومَحذوفًا مع التّنصيصِ على لفظ القسَمِ الصّادرِ مِنهم ليكونَ حُجّةً عليهم.

دلالةُ استعمالِ (المجيء):

مـجـيءُ النَّـذيرِ من عظائمِ أمورِ الـدّيـن ومـكـارمِ أمورِ الدُّنيا

جاء استعمالُ لفظ (المجيء) مُسنَدًا إلى النّذيرِ في قولِه تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾؛ للإشعارِ بمعنى التَّحقُّقِ؛ لأنَّ المجيء باعتبار الحصولِ؛ فبمُجرَّدِ تحقُّقِ مجيئه ليكونُنَّ أهدى مِن إحدى الأمم، ولأنَّ مَجيءَ الرَّسولِ ليس بالأمرِ الهيِّنِ السَّهْلِ؛ وإنَّما له خطرُه وشأنُه؛ لخطر الرِّسالة، وأهميَّةِ الغاية منها، وأثرِها في حياة الإنسانِ؛ فيكون هذا توطئةً قويَّةً للجوابِ: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾[1]، وكذلك يُقال في التّعبير بالمجيء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾، وكان إيرادُ المقسَم عليه بأسلوبِ الشَّرط إشارةً إلى أنَّه متى تحقّقَ المجيءُ فإنَّ الهداية تعقبُهُ؛ حِرصًا منهم على التّصديق وظهورِ ثمراتِ الإيمانِ عليهم.

نكتةُ تقييدِ فعل المجيء بالضَّمير:

الاخـتـصـاصُ بالرِّسالةِ مَطلَبُ كلِّ أمَّةٍ

قُيِّد فعلُ المجيءِ في قوله تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ﴾ بذكر المفعول به، وهو الضَّمير العائدُ على المشركين؛ فلم يُقل: (لئن جاء نذيرٌ)؛ للتّنبيهِ على أمرين؛ أنَّ النّذيرَ يَقصدُهم جميعًا، وأنَّه لهم على وجهِ الخصوصِ، وهو إيماءٌ إلى أنَّه يهتمُّ بهم ويَحرصُ عليهم؛ هدايةً وفلاحًا ونجاحًا، ونجاةً مِنَ النّار، وفوزًا بالجِنان، وإذا كانَ كذلك كانَ اللّائقُ بهِ سرعةَ الاستجابةِ العظيمةِ لهُ من قِبَلِهم، كما

(1) محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 14، 44، 45.

دلّ الضّميرُ على تعليلِ عدمِ إيمانِهم برسالاتِ أهلِ الكتاب وهو أنَّ أولئك الأنبياءَ لم يكونوا للعربِ ولأحوالِهم، فلا يصحُّ متابعتُهم؛ لأنَّ نبوّتهم لم تَستهدفْهم ولم تطلبْ منهم الدّخولَ في أديانهم، بخلاف النّبيِّ الَّذي تكون دعوتُهُ مختصَّةً بهم.

دلالةُ استعمالِ لفظِ ﴿نَذِيرٌ﴾:

الكشفُ عن واقعِ العربِ الفكريِّ قبلَ الرِّسالة

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مُفردة ﴿نَذِيرٌ﴾ في قوله: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ دونَ (بشير)؛ للكشفِ عن أمرٍ غيبيٍّ وهو أنَّ القومَ يعلمونَ أنَّهم على الخطأ والضّلال، وينتظرونَ مَن يُنذرهم، ويُخرجهم منَ الظُّلمات إلى النّور، ولو رأوا في أنفسِهم أنَّهم على خيرٍ لما احتاجوا إلى النّذير، ويُعزِّز هذا ما ذهب إليه ابنُ عاشورٍ في بيان حالِ الموقفِ؛ وذلك أنَّ مجادلةَ أهلِ الكتاب إيّاهُم كانت مشتملةً على تخويفٍ وإنذارٍ، وهذا يُرجِّحُ أنْ تكونَ المُجادَلةُ جَرَتْ بينهم وبينَ بعضِ النَّصارَى؛ لأنَّ الإنجيلَ معظمُه نِذارةٌ[1]، ويمكنُ أنْ يكون من بابِ (الاكتفاء)، وحرصوا على ذكرِ النَّذير دون البَشير؛ لأنَّ الأصلَ في دعوةِ الأنبياء الإنذارُ والتّخويفُ، والبِشارةُ لازمةٌ لها.

نكتةُ حذفِ الموصوفِ:

حذفُ الموصوفِ تمكينٌ لمعنى الصِّفةِ المنكَّرة

لفظُ ﴿نَذِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ وصفٌ لموصوفٍ محذوف، فقامتِ الصِّفة مقامَه؛ وفي الحذفِ إشارةٌ إلى تمحُّضِ الرَّسول للنِّذارةِ؛ حتَّى عُرِف بها؛ فصارتْ تُطْلَق عليه، ويُسْتَغْنَى عن ذكرِه معَها، وأنَّ إيمانهم حينئذٍ كإيمانِ الَّذين يُؤمنونَ في حالةِ الإنذارِ الشّديد؛ لأنَّ هذا الرَّسولَ ليس يتوجَّه منه شيءٌ إليهم إلّا الإنذارُ؛ وبهذا الحذفِ يقوَى ترتُّبُ قوله: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ على قوله: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾، ونُكِّر لفظُ ﴿نَذِيرٌ﴾؛ للدّلالةِ على النَّوعيَّة، أي: لئن جاءهم نذيرٌ مخصوصٌ عجيبٌ عظيمُ الشّان؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332.

ويُؤيِّده: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾، أي: لتميزُّهِ ليكونُنّ أهدى من إحدى الأُمَم؟.

دلالةُ استعمالِ فعلِ الكَوْنِ مُقترنًا باللّام:

جاء استعمالُ فعلِ الكون في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ﴾ فعلًا مضارعًا؛ لبيانِ عزمِهم على الاهتداء التّام، والالتزامِ الكامل بمعالم الرّسالة التي تنزلُ عليهم، وفي توكيدِ المضارع تقويةٌ على ذلك الكونِ النّاجم عن الإيمان بالرَّسول المُبتعَث، كما اقترنتِ اللّام به وهي الواقعةُ جوابَ الأقسام للتّوكيد أيضًا، فيكون توالي المؤكّدات دليلًا على شدّة رغبتهم ببعث نذيرٍ منهم لينذِرَهم ويُخوِّفَهم.

سرُّ التّعبيرِ باسمِ التّفْضيلِ:

جاء التّعبيرُ بلفظ (الهداية) في قوله تعالى: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ بصيغةِ التَّفضيل، أي: أشدُّ هدايةً أو اهتداءً بالمُسابقةِ على اتّباعه، وقولُه: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ متعلِّقٌ بلفظِ ﴿أَهۡدَىٰ﴾، وهو مُشتمِلٌ على المُفَضَّلِ عليه، وأمّا المُفَضَّلُ فهو اسمُ الكونِ المرادُ به المشركونَ، وجهةُ التَّفْضيلِ الهدايةُ أو الاهتداءُ بالرّسولِ النَّذيرِ ورسالتِه، وتكشف هذه المفاضلةُ عن مُحاورةٍ جرتْ بين المشركينَ في الجاهليّة وبينَ أهل الكتاب، فأقسَموا أنْ يَكونوا خيرًا منهم في الرَّشاد، والظّاهرُ أنَّ أهلَ الكتاب وصَفوهم بالضَّلال؛ لأنَّهم يعبدونَ الأوثان، وبشَّروهم بظهورِ نبيٍّ جديدٍ يَدعوهم إلى الله تعالى، فأقسَموا أنَّه لو ظهرَ اتّبعوه واهتَدَوا بكلامِه حتى يتفوَّقوا في هدايةً.

الكشفُ التّاريخيُّ عن مُحاوَرات المشركينَ لأهلِ الكتاب

بلاغةُ الإبهامِ ودلالتُه:

آثرَ النّظمُ الكريم الإبهامَ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ دونَ ذكرِ المراد تعيينًا، فلم يَذكُرِ اليهودَ أو النَّصارى أوْ أهلَ الكتاب ونحوَ ذلك، ويَحتملُ الإبهامُ أنْ يكونَ مِن كلامِ المُقْسِمينَ، ويَحتملُ أنْ يكونَ إبهامًا مِن كلامِ القرآنِ؛ على عادةِ القرآنِ في التَّرفُّعِ عمّا لا

للإبهامِ أثرٌ في اتِّساعِ المعنى ما لا يكونُ في تعيينِهِ

فائدةَ في تعيينِه؛ إذِ المقصودُ أنَّهم أشْهَدوا اللّهَ على أنَّهم إنْ جاءَهُم رسولٌ يكونوا أسبقَ مِن غيرِهِم اهتداءً، ويَحتمل أنْ يكون فريقٌ مِنَ المشركينَ نظروا في قَسَمِهِم إلى هَدْي اليهود، وفريقٌ نظروا في قَسَمِهِم إلى هَدْي النَّصارى، وفريقٌ نظروا في قَسَمِهِم إلى هَدْي الصّابئة؛ فجَمَعَتْ عبارةُ القرآنِ ذلك بقولِه: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾؛ ليأتي على مقالةِ كلِّ فريقٍ معَ الإيجازِ[1].

معنى تعريفِ ﴿ٱلۡأُمَمِۖ﴾ والإضافةِ:

تغايرُ التّعريفَينِ للرَّغبة في تحصيل كمالِ التّفوُّق

وردتْ كلمةُ (أل) في سياقِ التّركيبِ الإضافيِّ من قوله: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾ وأريدَ بها الاستغراقُ؛ إذِ الأممُ جمعُ أمّة، ودخولُ (أل) عليه دالٌّ على العموم والشّمول لجميع الأُمم المعروفةِ آنذاك، وأمّا تعريفُ الإضافة فهو للعَهد؛ إذِ الَّذين حاوَروا العربَ مِنَ النّصارى أوْ غيرِهم مِنَ اليهودِ ونحوِ ذلك، فأرادوا بهذينِ التّعريفينِ تفوُّقَهم على الأمَّة التي تعتقدُ تفوُّقَها في الاهتداء على جميعِ الأُمم، وفي اختيار لفظ ﴿ٱلۡأُمَمِۖ﴾ ما يشيرُ إلى شيوعِ كلمة (الأمّة) التي تنسبُ النّاسَ إلى (الأم) الواحدة أوِ المعتقد الواحد، وأنَّ العربَ أمّةٌ من تلك الأمم المعروفة، وتنقصها الهدايةُ وتُعيَّر بها فتوصف بالأمّيَّة للدّلالة على شدَّة الجهلِ والضَّلالة، حتى إنَّهم أقسَموا بالمسارعةِ إلى الاهتداءِ في حالِ ظُهور النّبيّ الجديدِ؛ للتّخلُّص من وصفِ الأميَّةِ المُلازمِ لهم.

بلاغةُ ذكرِ ﴿إِحۡدَى﴾ مضافةً إلى العُمومِ الجمعيِّ:

طبائعُ العربِ التّطلّعُ إلى أعلى المقامات وأرفعِ الدّرجات

جاء ذكر ﴿إِحۡدَى﴾ مضافًا إلى لفظِ ﴿ٱلۡأُمَمِۖ﴾، دون أنْ يُقال: (لنكونن أهدى مِن الأمم)، وإنّما استحضَروا الأُمَمَ كلَّها بصيغة جمعِ الكثرة، وقالوا إحداها "بمعنى: واحدةٍ، والظّاهرةُ أنَّها عامّة؛ وإنْ كانَتْ نكرةً في الإثباتِ؛ لاقْتِضاءِ المقامِ العُمومَ"[2]، وهذا إبلاغٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 22/ 205.

في إثباتِ الفَضْلِ لأنفسهم؛ وقد استوجَبَ ما قبلَه مِمّا ظهرت فيه المبالغةُ؛ فظهَر بذلك التناسب بينهما.

ويتناغَى معَ هذا الوجهُ الذّاهبُ إلى أنْ يكون: ﴿إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ بمعنى: أفضل الأمم؛ فيكونُ مِن تعبيرِ المُقْسِمين، أي: أهدى مِن أفضلِ الأمم، ولكنّه بناهُ على التّنظير بما ليس لهُ نظيرٌ؛ وهو قولُهُم: (إحدى الإحَد)، ولا يتِمُّ التّنظيرُ؛ لأنَّ قولَهم ذاك جرَى مجرَى المَثَل في استعظامِ الأمرِ في الشّرِّ والخيرِ، وقرينةُ إرادةِ الاستعظامِ الإضافةُ إلى اسْمٍ مِن لفظِها؛ فلا يقتضي أنه معنًى يُرادُ في حالةِ تجرُّدِ ﴿إِحْدَى﴾ عنِ الإضافة إليه[1]، وهذا جارٍ على المُبالغةِ المؤسَّسَة على المبالغةِ في جملةِ الشَّرْطِ، والَّذي يبدو أنَّهم أرادوا بهذا التّعبيرِ (أفضلَ الأمم)؛ لأنَّ كلَّ أمّةٍ تحاوروا معَها ادّعت أنَّها أفضلُ الأُمَم اهتداءً، فاحتاروا فيمَن الأفضلُ بينهم في نفس الأمر، فعَدَلوا عن تسميتِها، وأتَوا بلفظِ (الأحد) الدّالِّ على واحدةٍ منها، وأَعلنوا تفوُّقَهم عليها، فيَؤولُ المعنى إلى أنَّهم أرادوا أنْ يكونوا أفضلَ الأمم على الإطلاقِ في الاهتداء، وفي التّركيبِ دلالةٌ على تحيُّرِ الأُمَم في تعيينِ الأمَّةِ الأهدى، وأنَّ كلَّ واحدةٍ منها تدَّعي أنَّها الأحقُّ بالهداية والاتّباع.

بديعُ الجِناسِ المحرّف:

الـحِـرصُ على التفوُّق المُطْلق

بينَ لفظِ ﴿أَهْدَىٰ﴾، ولفظ ﴿إِحْدَى﴾ جناسٌ محرّف[2]؛ لاختلافِ نوعِ الحرفِ؛ والحَرْفانِ مُتقاربانِ؛ لأنَّ الهاء والحاء مِن حروفِ الحلْقِ، وكأنَّ الجناس يشيرُ إلى معنى: أَهدى من أَهدى الأمم، فقاربَ بين اللّفظين؛ لأنّه أُريد بالإضافة أَهداها وأفضلُها من غير تعيين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332، والزمخشري، الكشاف: 12/ 669.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 332.

معنى الفاء ودلالتُها:

سرعةُ نسيان المُعاندين لِعهودِهم

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على مجموعِ ما قبلها؛ وفيها دلالةٌ "على إسراعِهم في الكذبِ"[1]، كما أنّ فيها إشارةً إلى تعقيبِ حرصِهم على الاهتداءِ وأسبقيّتِهم كلَّ الأمم فيه تعقيبًا سريعًا، حتى إنَّه لم تمضِ مدّةٌ طويلةٌ ليَنسوا ما أقسَموا به منَ الأَيمانِ المغلَّظة على الاتّباع للنّبيِّ الجديد والاهتداءِ به.

فائدةُ تَكْرارِ ذكرِ جملةِ الشّرط:

توبيخُ المُذنبِ بعد إقامةِ الحُجّة أعزُّ في الخطابِ

آثر النَّظمُ الكريم تكرارَ جملةِ الشَّرط بعينها ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ بالقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ الحُجَّةَ قامَتْ عليهم على جهةِ التَّمام والكمالِ، ولزيادةِ ذمِّهم وتوبيخهم، فلم يكُن منهم أدنى احتفاءٍ بالرِّسالة والرَّسولِ لمّا جاءَهُم، وأدنى حرصٍ على الانتفاعِ به؛ على عكسِ ما ادَّعَوا على جهة المبالغةِ، كما أفادَ تَكرارُ الشّرط تذكيرَهم باللَّفظ نفسِه الَّذي صدرَ منهم في تلك الأيمان المغلَّظة والمؤكَّدة، حتى لا يتذرَّعوا بالنِّسيان والغفلة؛ إذ إعادةُ اللَّفظ بعينه أدعى إلى التّذكيرِ بما صدرَ عنهم.

نكتةُ تنكيرِ لفظة ﴿نَذِيرٌ﴾ الثّانية:

محمّدٌ أشرفُ خلقِ اللهِ وأعظمُ مَن أنذَرَ البشرَ

نُكِّر لفظ ﴿نَذِيرٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾؛ للتّعظيم والتّفخيم؛ فهو أشرفُ الرُّسُلِ جميعًا عليهم الصّلاة والسّلام، "وهو محمّدٌ ﷺ الَّذي كانوا يشهدون أنَّه خيرُهم؛ مع كونِه خيرَهُم نفسًا، وأشرفَهُم نسَبًا، وأكرمَهُم في كلِّ خُلُقٍ أُمًّا وأبًا، وأمتنَهُم في كلِّ مَأْثُرَةٍ سَبَبًا"[2]، ونلحظُ أنَّ تنكير ﴿نَذِيرٌ﴾ الأولى في كلامِهم للتّقليلِ، فقد أقسموا على أنَّ أيَّ نذيرٍ يأتيهم سوفَ يتّبعونَه، ولو كان وصفُ النّذارةِ فيه قليلًا، بخلاف تنكيرِ ﴿نَذِيرٌ﴾ الثّاني فهو للتّفخيم، ويكونُ بين الوصفينِ طباقٌ من حيثُ التّنكيرُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235.

وجهُ استعمالِ لفظِ (الزّيادةِ):

قـلـبُ الـحـاسِـدِ يَـــزدادُ حِـقـدًا بـــكَـــمـــالِ المَحسودينَ

(الزّيادَةُ) أصلُها نماءٌ وتوفُّرٌ في ذواتٍ؛ والظّاهرُ أنَّ لفظَ الزّيادة في قوله تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ على حقيقته؛ إذِ المرادُ أنّهم لمّا أقْسَموا: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ﴾ كانَ حالُهُم حالَ النُّفورِ من قَبْلِ دعوةِ النَّصارَى إيّاهُم إلى دينِهم، أوْ مِنَ الاتِّعاظِ بمواعظِ اليهود في تقبيحِ الشِّرك؛ فأقسَموا ذلك القَسَم؛ تَفَصّيًا مِنَ المُجادَلة؛ وباعثُهُم عليه النُّفورُ مِن مفارقة الشِّركِ، فلمّا جاءَهُم الرَّسولُ ما زادَهُم شيئًا؛ وإنَّما زادَهُم نفورًا، فالزّيادةُ بمعنى التَّغْيير، فالمعنى: لم يَزِدْهم شيئًا؛ وحالُهُم هيَ هيَ، وقد يُراد بالزّيادةِ القوّةُ في الصّفات؛ على وجْهِ الاستعارةِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: 125]، وهذا الوجهُ مآلُهُ الوجهُ السّابقُ؛ لأنّه يعني أنَّ أصلَ النُّفورِ موجودٌ[1]، لكنَّ نفرتَهم السّابقةَ منَ نذيرٍ مخصوص، لكونِه ليس من بني جِلدتِهم، وهم يأنفونَ ذلك، بدليل أنَّهم أقسموا وأكّدوا على الاتّباع للنّذير إنْ جاءَهم لهم خصّيصًا، وليس بأنْ يكون النّذيرُ لغيرهم وهم تابعونَ لغيرهم، فالنّفورُ الأوّلُ ليس من أصلِ النّذارة، بل منَ التّبعيَّة والخُضوع لغيرهم، فلمّا كرّمهم اللّه بنذيرٍ من أنفسِهم ما زادَهم إلا نُفورًا، فالنُّفور الأوّلُ اتّباعُ نبيٍّ ليس منهم، والنُّفورُ الثّاني اتّباعُ نبيٍّ منهم، لكن ليسَ بمَكانتهم ومقامِهم كما توهَّموا، وكِلا النُّفورينِ استكبارٌ وغرورٌ وباطلٌ.

بلاغةُ إسنادِ فعل (الزيادة) إلى المُستتر:

على قدرِ الرّغبةِ في مُفاخرةِ الآخَرِ كان حَسَدُ الذّات بل أزيدُ

فاعلُ الفعل في قوله: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ضميرٌ مستترٌ؛ إمّا أنْ يعودَ على المصدرِ المفهوم من فعلِ المجيءِ ﴿جَآءَهُمْ﴾ أوْ يعود إلى ﴿نَذِيرٌ﴾، أي: فما زادَهم مَجيئُهُ أوِ الرّسولُ النَّذيرُ، والمآلُ واحدٌ، "وإسنادُ الزّيادةِ إليه على كلا الاعتباريْنِ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الرّسولَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 333 - 234.

أوْ مَجيئَه ليس هو يَزيدُهُم، ولكنَّه سببُ تقويةِ نفورِهم أوِ استمرارِ نفورِهم"[1]، وهذا المجازُ يفيدُ التَّعجُّبَ مِن حالِهم؛ لأنّه يُبرزُ كذبَهُم وتناقُضَهُم العجيبَ الغريبَ؛ لأنَّهم رتَّبوا عليه مِن قبلُ: ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾، ثمَّ رتَّبوا عليه الآنَ النُّفورا!!

علّةُ تأكيدِ الشّيء بما يُشبِهُ ضِدَّهُ:

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ أنَّ القومَ كانوا نافرينَ مِن قبلِ أنْ يقولوا ما قالوا، ونفورُهم بسببِ رفْضِ قَبولِ الحقِّ، وأنَّهم قالوه تهرُّبًا مِنَ الجدالِ؛ بدافعِ بغضِ التَّحوُّلِ عنِ الشِّركِ؛ فلمّا جاءَهم الرّسول ما زادَهم شيئًا؛ وإنَّما زادهم نفورًا؛ فالاستثناءُ تأكيدٌ للشَّيء بما يُشْبِه ضِدَّهُ[2]، على معنى أنَّ ما يقتضيه أمرُ مجادلةِ أهل الكتاب الإقبالُ على ما يجعلُهم أهدى منهم لا النّفورُ، ومبْنَى هذه الطَّريقةِ على غرابةِ صنيعِهم وعُجْبِه، وأنَّ مِن شأنِهِ أنْ تَستبعدَه النَّفْسُ؛ فهو مُفاجِئٌ بالنَّظرِ إلى حالِهم في قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ﴾؛ فكان اللّائقُ به هذا الأسلوبَ.

المَواقفُ الفعليّة تكشفُ خفايا النُّفوس وتُظهرُ خَبايا الحقائق

بلاغةُ استعمالِ لفظِ النُّفورِ:

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ (النفور) مصدرًا في قوله تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ لتصويرِ حقيقة بُعْدِ المشركين عنِ الحقِّ؛ بحيثُ يتلاءَمُ معَ حالِ المُشركينَ وواقعِهم؛ فعبَّرَ عنِ البُعْدِ عنِ الحقِّ والهداية والإصغاءِ لكلامِ النّبيّ بالنُّفورِ الذي هو حركةٌ عكسيّةٌ؛ مجازًا مُرسَلًا؛ لعَلاقةِ اللُّزوميَّة، أوِ استعارةً تصريحيَّةً، بتشبيهِ المعنويِّ بالحِسّيّ، فمِن بلاغةِ التّعبيرِ به إخراجُ المعقولِ في صورةِ المحسوسِ، ومنها: الدّلالةُ على غايةِ الرَّفْضِ للرَّسولِ

مجيءُ النَّذيرِ كشْفَ عَراقةَ المشركينَ في الضَّلالِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

والرِّسالةِ وبُغْضِهما؛ في مقابلةِ غايةِ الإقبالِ عليهما والرَّغبةِ فيهما؛ بما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾؛ معنًى وصورةَ معنًى؛ فالتَّعبيرُ به يوحي بأنَّ المشركينَ "كالإبلِ التي كانتْ نفرَتْ مِن ربِّها، فضلَّت عنِ الطَّريق فدعاها، فازْدادَتْ؛ بسببِ دعائِه نُفْرَةً؛ فأَعْرَقَتْ في الضَّلالِ؛ فصارَتْ بحيثُ يَتعذَّرُ أوْ يَتعسَّرُ ردُّها؛ فتبيَّنَ أنّه لا عهْد لهُم معَ ادِّعائِهِم أنّهم أَوْفَى النّاسِ، ولا صِدْقَ عندَهُم معَ جزْمِهِم بأنّهم أصْدَقُ الخَلْقِ"[1].

علَّةُ حذفِ المتعلِّق:

تحقيقُ المعرفةِ بالسّياقِ مع الإشعارِ بالعمومِ أبلغُ منَ الذِّكر

حُذِف متعلِّقُ المصدر ﴿نُفُورًا﴾ من قوله: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾، فالنّفورُ يكونُ من مَنفورٍ منه، فيُقال: (نفرتُ مِن كذا)، والتّقديرُ: فلمّا جاءهمْ نذيرٌ ما زادَهم إلّا نفورًا مِنَ الهُدَى، أوْ مِنَ النّذيرِ، ونحو ذلك، والمآل واحدٌ، وكأنَّ الحذفَ يتَّسِعُ ليدخُلَ فيه كلُّ تقديرٍ، وسوَّغَ الحذفَ وحسَّنَه دلالةُ السّياقِ على المحذوفِ.

بلاغةُ القصر ودلالتُهُ:

يُراعَى في الأُسلوبِ حالُ المعنى والمُتلقّي جميعًا

أسلوبُ القصر في قوله تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ في وصف المشركينَ، هو قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ؛ قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ كلَّ ما كانَ مِنَ المشركينَ تفصيلٌ لهذا النُّفورِ وناشئٌ عنهُ، ولا يخرجُ عنه عندَ مَجيءِ النّذيرِ.

موقعُ ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ ومعنى السّين والتّاء:

الاستكبارُ علَّةُ النُّفورِ عنِ الحقِّ والالتصاقِ بالباطل

قوله تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من تمامِ الآيةِ السّابقةِ، والعَلاقةُ بينهما عُضْويَّةٌ؛ لأنَّ كلمةَ: ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ بدلٌ مِن: ﴿نُفُورًا﴾، أوْ مفعولٌ مِن أجلِه، لأنَّ النُّفورَ في معنى الفعلِ؛ فصَحَّ إعْمالُه في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235.

المفعولِ له، والتّقديرُ: نفروا؛ مِن أجلِ الاستكبارِ في الأرضِ[1]، والسّينُ والتّاءُ للمبالغةِ[2]، فإذا كانَ الأصلُ أنْ يتطابَقَ العِلّةُ والمعلولُ فإنَّ هذه العِلَّةَ بهذه الصِّفةِ تكشِفُ عن عِظَمِ المعلولِ في بابِه؛ فظهَر بهذا التّلاؤُمُ بينَ النُّفورِ والاستكبارِ، وقد دلَّ التّعليلُ للنُّفور أنَّ مبعثَه والدّاعيَ إليه استكبارُهُم عنِ الحقِّ، ولم يكنِ النّفورُ لأمرٍ يرجعُ إلى ذاتِ الدّعوة، بل لمرضٍ نفسيٍّ حجَبَهم عن سَماعِ الحقيقةِ والهِداية.

شأنُ الاستكبارِ مِـلْءُ الأرضِ ظُلْمًا ومَكرًا

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

جاءَ استعمالُ حرفِ الظّرفية في قوله تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو قيدٌ للعلّة: ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾، للدّلالةِ على مبالغتِهم في الاستكبارِ، واستمرارِهم فيه، وإصرارِهم عليه؛ حتّى نَسوا ما خُلِقوا مِن أجلِه بالكُلّيَّة؛ وهذا ما تأسَّسَ عليه زيادةُ نفورِهم مِنَ النَّذير؛ لمّا جاءَهُم، كما أنَّه يدلُّ على عمومِ انتشارِ الاستكبارِ في الأرض، حيثُ تغلغلَ في كلِّ نواحيها، وإنْ كان الواقعُ ليس كذلك، لكنَّ عظيمَ شأنِ الاستكبارِ في نفوسِهم يصلُ إلى أعظمَ من ذلك.

المستكبر يرى نفسه على أهل الأرض جميعًا

معنى تعريفِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للعهد الذِّهنيِّ؛ فهي موطنُ القوم؛ والمعنى: أنهم استكبروا في قومهم أنْ يتَّبِعوا واحدًا منهم[3]، ولا يبعدُ أنْ يكونَ التّعريفُ للجنس فيفيدَ عمومَ الأرض من شدَّة الاستكبار والعُلوِّ على الحقّ، وهذا أنسبُ وأعمقُ بحالة النّفور المعلَّلة بطَلَبِ الكِبْرِ في الأرض، أي كلِّها، وتكوّنَ من اجتماعِ الجارِّ والمجرور ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ توصيفٌ للاستكبار وتحديدٌ لمحلِّه، والغرضُ منه بيانُ شموليَّة الاستكبار، حتى إنّه كاد يغطّي الأرضَ بأجمعِها.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 443، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

دلالةُ حذفِ المتعلّق:

إنَّما يَستكبرُ على الهُدَى عُمْيُ البصائرِ ومَحجوبو الضّمائر

حُذف متعلِّقُ الاستكبار في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: استكبارًا في الأرضِ على الحقِّ والهُدى الَّذي جاءَهُم به النّذيرُ، وهو مِن وجوهِ التَّناسُبِ والترابُطِ بينَ هذه الآية وما قبلَها؛ لحذفِ متعلِّقِ ﴿نُفُورٗا﴾ فيها أيضًا، وحسَّنَ الحذفَ العِلْمُ بهِ مِنَ السّياقِ، ونكتتُهُ الإشعارُ بعِظَمِ الاستكبارِ وشدّةِ عُلوِّه حتَّى إنَّه أحاطَ بالحقِّ والهُدَى، وخفيَ الحقُّ والهُدَى فيه؛ فلم يجِدِ الهُدَى إلى نفوسِهم وقلوبِهم سبيلًا.

نكتةُ ترتيبِ المتُعاطفات:

الاستكبارُ في الأرضِ علّةُ المكْرِ وسببُهُ

(الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئُۚ﴾ عاطفةٌ على قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: نفروا لأجلِ الاستكبار ولأجل مَكرِهِم السَّيِّئ، وقُدِّمَ المعطوفُ عليه على المعطوفِ؛ لأنّه أظهرُ مِنَ المَكْرِ الذي هو أخْفَى مِنَ الاستكبارِ؛ فالتّقديمُ جارٍ على جهةِ التّرَقّي، أي: استكبروا على الحقِّ، فلمّا زادَ استكبارُهم مكروا مكرَ السّوْءِ بأهل الحقّ، كما أنَّ الأصل في النّفور عنِ الحقّ أن يكونَ بسببِ التّكبُّرِ عليه، وقد يكونُ بسببِ إرادةِ المكْرِ به وبأصحابِه، فبدأ بالأصل وأخَّر غيره، وأنَّ الاستكبار مشاهَدٌ بحركاتِ الجَسَدِ الدّالّةِ عليه حتى كأنَّه عينُ النّفورِ المُشاهَد، والمكرَ خفيٌّ لا يُحاط به لكونه أمرًا قلبيًا محضًا.

مناسبةُ استعمالِ لفظِ المكْر:

الاستكبارُ والمكرُ مُتكاملانِ في الخفاءِ

ناسبَ لفظَ الاستكبار ذكرُ لفظ (المكر) في قولِه تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئُۚ﴾، وهو بيانٌ لعِلَّةٍ ثانيةٍ وراءَ زيادةِ نفورِ المشركينَ وهيَ المكرُ؛ الذي يحملُ معنى إخفاء الأذى[1]، ووجهُ المناسبة أنَّ الاستكبارَ خفيٌّ في النُّفوس، ومكرَ السيِّئ كذلك خفيٌّ في النُّفوس، ونتائجَهما ظاهرةٌ للعيانِ، فكلُّ ما يصدر عنهم ما بين الاستكبار والمكر، والاستكبارُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

صفةٌ أخلاقيَّة قلبيّة تدلُّ عليه حركاتٌ جسمانيّة، والمكرُ صفةٌ ذهنيّةٌ تفكريّةٌ لا تدلُّ عليه حركاتٌ جسميّةٌ، فهي تحتاجُ إلى علمٍ ومعرفةٍ وتدبير واحتيال؛ فتكاملَ اللَّفظان في بيانِ الأخلاقِ والعَقْلِ.

نوعُ الإضافة ودلالتُها:

التّصريحُ بالوصفِ الكاشِفِ إبلاغٌ في تقريره للموصوفِ

الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾ من إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ؛ مِثْلُ: (عشاء الآخرة)، وأصلُه: أنْ يمكروا المكر السيِّئ؛ بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾، وبدليلِ قراءة عبدِ الله بنِ مسعود غيرِ المتواترة: (ومكرا سيئا)؛ وإنَّما كان المكرُ سيِّئًا؛ لأنّه مِنَ الغَدر؛ وهو مُنافٍ للخُلُق الكريم، فوصْفُه بالسَّيِّء وصفٌ كاشِفٌ، ولعلَّ التّنبيهَ إلى أنّه وصفٌ كاشِفٌ هو مقتضَى إضافةِ الموصوفِ إلى الوصفِ؛ لإظهار مُلازمة الوصفِ للموصوفِ؛ فلم يقل: ومكروا سَيِّئًا[1]؛ إبلاغًا في بيانِ حقيقةِ مكرِهم؛ كأنَّ مكرَهُم لا يبلغه مكرُ غيرِهم في درجةِ السّوءِ؛ وإنْ تساوى مكرُهُم مع مكرِ غيرهم في أصلِ السّوءِ.

ودلَّتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾ على المبالغةِ في اتِّصافِ الموصوفِ بالصِّفة وثبوتِها له على جهة المُلازَمة؛ لأنَّ الإضافة فيها بمعنى اللّام؛ فهي تفيد اختصاصَ الموصوفِ بالصّفة، والصّفةُ والموصوفُ شيءٌ واحدٌ؛ فإضافةُ الموصوفِ إلى صفتِه يُعَدُّ - مِن حيثُ الظّاهرُ - مِن إضافة الشَّيء إلى نفسِه؛ وكأنَّ الصِّفةَ لكمالها جُعِلت بمنزلة شخصٍ آخَرَ يُضاف إليه الموصوفُ؛ وهذا قريبٌ مِن مُحسِّن التّجريدِ[2].

قد يجتمعُ عظيمُ المكرِ مع ضعفِ نتائجِهِ

دلالةُ حذفِ المتعلّق:

حُذِف متعلّق قوله: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾؛ للإشعارِ ببُطْلانِ هذا المَكْرِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 334، 24/ 216، وعادل الأكرت، دراسات في البلاغة القرآنية، الدراسة الأُولى: مِن بلاغة الصفة في القرآن الكريم، ص: 59 - 60.

وضَعْفِ أثَرِهِ؛ فيكونُ في الحَذْفِ تَمْهيدٌ لقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وللإيماءِ في الوقتِ نفسِه إلى عِظَمِ هذا المَكْرِ؛ حتَّى إنَّه كأنَّه يُحيطُ بهم؛ ولا تعانُدَ بينَ الدّلالتيْنِ، مع الإنكار عليهم أنْ يَمْكُروا بالنَّذيرِ وأتْباعِه؛ فمِثْلُهم لا يَنبغي أنْ يُمكَرَ بهم.

توجيهُ القراءاتِ المُتواترة:

القراءاتُ تُصَوِّرُ مكرَ المُشركينَ بصوتٍ بيانيٍّ مُعجِزٍ

قرأ الإمامُ حمزةُ قولَه تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾ بسكونِ الهمزةِ وصْلًا؛ إجراءً له مَجْرَى الوقفِ؛ لتوالي الحركاتِ تخفيفًا، وقرأ الباقون بالهمزة المكسورة: ﴿ٱلسَّيِّئُ﴾[1]، فقراءةُ "حمزةَ بإسكان الهمزة بنيَّةِ الوقْفِ إشارةٌ إلى تدقيقِهم المكرَ وإتْقانِه وإخْفائِه جُهْدَهُم"[2]، وقراءةُ الباقينَ بالهمزةِ المكسورةِ: تشيرُ إلى قوّة هذا المكرِ وتمامِه، وإلى ظهورِ بعضِ آثارِ المكر.

دلالةُ واوِ الحال:

أحوالُ الأفعالِ كالسُّنَنِ الباقية

(الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾: واوُ الحالِ، أي: والحالُ أنّه لا يحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأهله، ونظمُ هذه الجملةِ حالًا؛ إشارةٌ إلى أنَّ المكرَ السّيّئَ يحيقُ بأهله في المآلِ، وأنَّها عادةٌ وسُنَّةٌ كونيَّةٌ، وتنبيهٌ على أنَّ معناها كالقيدِ لقوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾؛ فيفيدُ القيدُ أنَّ مآلَ هذا المكرِ السَّيِّئ مهما عظُم وقويَ واشتدَّ فإلى البَوارِ، وإنَّما وقعَ الردّ بالحالِ على (مكر السّيِّءِ) دونَ (الاستكبار)؛ لأنَّ ضررَ المكرِ بالحقِّ أعظمُ من ضررِ التّكبُّرِ عليه؛ لأنّه إخفاءٌ لفعلٍ غادرٍ بخلافِ الاستكبار.

نوعُ (لا) ودلالتُها:

الحرف (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ للنّفي؛ وقد دخلَ على المضارع؛ فدلَّ على الاستقبالِ؛ وهذا يُضْفي على معنى الجملة القصريَّة العُمومَ.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 352، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 464.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 235.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿يَحِيقُ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

مَكْرُ الخائنينَ يَحيقُ بهم من حيثُ لا يَشعرونَ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ (الحَوْق) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وهو ما استدار بالكَمَرةِ، والحَوْقُ: كَنْسُ البيتِ، وهذا اللَّفظُ لا يُستعمل إلّا في المكروه، والحَيْق ما حاقَ بالإنسان من مكْرٍ أَوْ سوءٍ يَعملُهُ فيَنزلُ ذَلِك بِهِ[1]، للدّلالةِ على أنَّ مكرَهم يعودُ عليهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ المكرَ بالمؤمنين هو مكرٌ بالرِّسالة والمُرسِلِ سُبحانه، فمَن مكرَ باللّه مُكِرَ به من حيث لا يعلمُ؛ لأنَّ اللّه تعالى يُحيطُ بالعبادِ، ولا يُحيطون به، فعُلم أنّ منتهى المَكْرِ بهم، ولمّا كان مكرُ المشركينَ بالمؤمنينَ مُتجدِّدًا؛ فأوقاتُه غيرُ مُتَّصِلةٍ ومُتفاوتةٌ؛ نُظِرَ إلى ذلك في نَظْمِ الحَوْقِ فعلًا مضارِعًا.

دلالةُ حذفِ المضاف:

تنبيهُ الماكرينَ إلى بالغِ مَكرِهم وسوءِ تدبيرِهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ﴾ إيجازٌ بحذفِ مضافٍ، والتّقديرُ: ولا يحيقُ ضرُّ المكرِ السّيِّئ، أوْ سوءُ المكر السّيِّئ؛ على ما يدلُّ عليه الفعلُ: ﴿يَحِيقُ﴾[2]، والمكرُ السَّيِّئُ ليس إلّا سوءًا وضرًّا كلَّه؛ ففي الحذفِ إبلاغٌ في تقريرِ ذلك؛ تنفيرًا منه من جهةٍ، وإبلاغًا في تهديدِ الماكرينَ وترهيبِهم وإرعابِهم بأنَّ ضررَ المَكْرِ وسوءَه نازلٌ بهم لا محالةَ؛ فإنَّ المكرَ إذا نزَل بهم فقد نزَل بهم ضررُه.

بلاغةُ تعريف لفظِ ﴿ٱلْمَكْرُ﴾:

الحملُ على الجنسِ يُطابِقُ قَصْدَ السّياقِ، ويمهِّدُ للّاحق

تعريفُ كلمة ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ يَحتملُ أنْ يكونَ للجنس، فيشملُ المعنى كلَّ مَكْرٍ، ويَحتملُ أنْ يكونَ للعهدِ الذِّكريِّ؛ فقد ذُكِر من قبلُ في قوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾؛ والمعنى: ولا يحيق هذا المكرُ إلّا بأهله؛ وهُمُ الَّذين جاءهم النّذيرُ، فازْدادوا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حوق)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 443.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 335.

نفورًا[1]، والعمومُ مِن مَسالكِ المُبالغةِ، والإبلاغُ في التّرهيبِ والموعظةِ مِن البرِّ بهؤلاءِ المشركينَ؛ لأنَّ نفورَهُم مِنَ النّذيرِ؛ استكبارًا في الأرض، ومكرَ السّيِّئ لمّا جاءَهُم شيءٌ عجيبٌ غريبٌ جدًّا؛ فالأَوْلى الحَمْلُ على الجنس؛ مع فائدةِ التّوطئةِ والتّمهيدِ لمجيء قولِه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

نكتةُ الإظهارِ في موضِعِ الإضمارِ:

إذا جعلْنا تعريفَ كلمة ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ محمولًا على العهدِ الذِّكْريِّ؛ كان الظّاهرُ أنْ يُقال: (ومكرَ السَّيِّئِ ولا يحيقُ إلّا بأهله)، ولكنْ أعيدَ ذكرُ المَكْرِ ووصفِه بالاسْمِ الظّاهرِ؛ إشعارًا بتمام المُطابَقةِ بينَ العملِ وجزائِه؛ إبلاغًا في ترهيبِهم مِنَ الشّرك، وتنفيرِهم مِنهُ.

النَّفْسُ تجدُ بعضَ ما عمِلَت مِن شَرٍّ مُحْضَرًا في الدُّنْيا

بلاغةُ الاستعارةِ في ضمير (الأهل):

استعملتِ الآيةُ لفظَ (الأهل) مضافًا إلى ضميرِ المَكْر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾؛ لأنَّ المكرَ إيذاءٌ شديدٌ؛ لإخفائِه، فلا يتمكَّنُ مِن تحقيقِه إلّا مَن كان عريقًا في الشَّرِّ والمكرِ، وكأنَّ المكرَ له بيتٌ يَسكنُه، فهو استعارةٌ، حيث شبَّه المكر السّيِّئَ ببيتٍ يسكنُهُ أناسٌ، وحذفَ المشبَّه به على سبيل الاستعارة المكنية، وأشار إليه بأهل؛ ففي استعمالِه ذمٌّ للماكرينَ عمومًا، وللمشركينَ الذين يمكرونَ بأهل الإيمانِ في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ خصوصًا؛ لأنَّ نفوسَهُم عامرةٌ بدوافعِ المَكْرِ، وآلِفةٌ للمَكْرِ؛ ويتأسَّسُ على هذا دلالةٌ أخرى؛ وهي تمكينُ حصولِ المعنى وتحقيقُه؛ لأنَّ في التّعبيرِ به تعليلًا في المعنى لكونِ المكرِ يَحيق بهم، ويؤكِّد هاتيْنِ الدّلالتيْنِ ويُحقِّقُهُما إضافةُ الأهل إلى ضميرِ المكرِ؛ فكأنَّهم عُرفوا به، ورسَخ فيهم، بقي أنَّه لمّا شبَّه ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ ببيتٍ له أهلُهُ الَّذين ينزلونَ فيه، كان قد شبّهَ

للماكرينَ بيوتٌ تجمعُهم ومساكنُ تُخفيهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 336.

المكر بشيءٍ ينزلُ بأصحابه في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ﴾، مع أنَّ المكر من حيث هو لا ينزلُ بالماكرين، لكنَّه شبَّهه بشيءٍ ينزلُ فيهم والماكرونَ هنا ينزلونَ فيه، فنجمَ من ذلك اتحادٌ تامٌّ بين المَكْر والماكرين، فهو محيطٌ بهم وهم نازلونَ فيه، فلا ناصرَ لهم من ذلك المَكْر.

بلاغةُ القَصْرِ ودلالتُهُ:

القَصْرُ حَسَنٌ وفَصْلٌ في قضيَّةٍ يُنْكِرُها المُشركونَ

قُصِر حَوْقُ المَكْرِ السَّيِّئ على أهله في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾؛ قصرَ صفةٍ على موصوفٍ، والقصرُ قائمٌ على إثباتٍ ونفيٍ؛ ففيه نوعُ توكيدٍ قويٍّ؛ ولهذا يَعُدُّه العلماءُ من أساليبِ التّوكيد؛ فهو قصرٌ إضافيٌّ؛ على أنَّ التّعريفَ بأل في ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ للعهدِ؛ فحَوْقُ المكرِ السّيِّئ ثابتٌ لهؤلاءِ المشركينَ، منفيٌّ عن النَّذيرِ وأهلِ الإيمانِ معَه؛ وهو قصرٌ قلبيٌّ؛ لأنَّ المشركينَ حين يَمكرونَ يَعتقِدونَ حُصولَ الأَذَى والضَّررِ لأهل الإيمانِ وحْدَهُم، ولو كانوا يَعْتقِدونَ رُجوعَ الأَذَى والضَّررِ عليهم لَما أقْدَموا علَى المَكْرِ؛ فهم بمثابةِ المُنكِرِ لحُلولِ الأذَى بهم، فاقتضَى حالُهُم القَصْرَ بالنَّفي والاستثناءِ؛ الّذي يُقرِّرُ لهُم الحقيقةَ، ويُؤكِّدُها في أنفُسِهم، وإذا كان القصرُ إضافيًا قلبيًّا كان "مَوقِعُ قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ موقِعَ الوعيدِ، بأنَّ اللّه يدفعُ عن رسولِه ﷺ مكرَهم، ويَحيقُ ضرُّ مكرِهم بهم بأنْ يُسلِّطَ عليهم رسولَه على غفلةٍ منهم؛ كما كان يومَ بَدْرٍ ويومَ الفتحِ؛ فيكونُ على نحوِ قولِه تعالَى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54]"[1].

وإذا جعلنا التّعريفَ في لفظ ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ للجنس؛ فهو قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ؛ فيعُمُّ المعنى كلَّ مكرٍ وكلَّ ماكِرٍ؛ فيدخلُ فيه الماكِرونَ بالمسلمينَ مِنَ المشركينَ، وهذا هو الأنسبُ بموقعِ الجملة ومَحمَلِها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 336.

على التَّذْييلِ، وإنَّما كان ادِّعائيًّا؛ لابتنائِهِ على عدم الاعتدادِ بالضّرِّ القليلِ الذي يحيقُ بالمكورِ به بالنِّسْبة لِما أعدَّه اللّهُ للماكِرِ في قَدَرِه مِن مُلاقاة جزائِه على مكرِه؛ فيكونُ ذلك مِنَ النّواميس التي قدَّرَها القدرُ لنظام هذا العالَم؛ لأنَّ أمْثالَ هذه المُعامَلاتِ الضّارَّةِ تؤولُ إلى ارتفاع ثقةِ النّاس بعضِهم ببعضٍ، واللّهُ بنَى نظامَ هذا العالَمِ على تعاوُنِ النّاسِ بعضِهم مع بعضٍ؛ لأنَّ الإنسانَ مدنيٌّ بالطَّبْعِ[1].

نوعُ (الفاء) ومعناها:

العَلاقةُ بينَ المُتعاطفات علاقةُ ترهيبٍ ووعيد

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ عاطفة للتّفريع؛ والمُفرَّعُ المعطوفُ عليهِ جملةُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ على جعْل التّعريف في ﴿ٱلْمَكْرُ﴾؛ للعهد الذِّهْنيِّ، وكونِ الأهلِ هؤلاءِ المشركينَ، أي: كما مكَر الّذين مِن قبلهم، فحاقَ بهم مكرُهُم كذلك هؤلاء[2]، وحَمْلُ (الفاءِ) على الوجهِ الأوَّلِ أبلغُ في التّرهيبِ والتّهديدِ والتّشديدِ عليهم؛ لعِظَمِ السّببِ المُفرَّعِ المعطوفِ عليهِ في جلْبِ العقابِ المُنبَّهِ عليه في جملة المعطوفِ.

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُهُ:

القرآنُ يُنبِّه المشركينَ رَدعًا لغواياتِهم وإحسانًا لهدايتهم

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ أسلوبِ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ دون صريحِ النَّفْي، فلم يقُل: (ما ينظرونَ إلا سُنَّتَ الأوَّلين)، وإنما خرَج لهم النَّفيُ في صورةِ الاستفهامِ الإنكاري بمعنى النَّفْي؛ ليَرْجِعوا إلى أنفُسِهم، فيتأمَّلوا المعنى والحالَ، فإذا راجَعوا أنفسَهُم، وازدَجروا وارتَدعوا رجَعوا عمّا هم فيه، وصاروا يَنطِقون بـ: (ما ينظرونَ إلّا سُنّتَ الأوَّلين)؛ لأنَّ الاستفهامَ مَحْضُ معناهُ التَّنْبيهُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 335.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.

براعةُ الاستعارة:

تـنـوُّعُ أوجُـهِ الاسـتـعـارةِ جمالٌ في المَبنى واتِّساعٌ في المعنى

جاءَ استعمالُ مفردة (النَّظرِ) في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾، وهو بمعنى الانتظار، أي: أنَّهم يَستقبلونَ ما حلَّ بالمُكذِّبينَ قبلَهُم؛ فشُبِّه لزومُ حُلولِ العذابِ بهم بالشَّيء المعلومِ لهم، المُنْتظَرِ منهم؛ على وجه الاستعارة[1] التّصريحيَّةِ التّبعيّةِ، ويمكنُ أنْ يكونَ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ مِنَ النَّظَر بالعين؛ لأنَّ القرآنَ شبَّه العِلْمَ بالانتقامِ مِنَ الأوَّلينَ - معَ العِلْمِ بأنَّ عادتَه مُستمرَّةٌ؛ لأنّه لا مانعَ له منها؛ لعظيمِ تحقُّقِه، وشِدَّةِ استيقانِه، وقوّةِ استحضارِه - بشيءٍ محسوسٍ حاضرٍ لا يُنظر شيءٌ غيرُهُ في ماضٍ ولا آتٍ؛ لأنَّ غيرَه بالنِّسْبة إليه عدَمٌ[2]؛ على وجهِ الاستعارةِ التّمثيليّة؛ فالمُشبَّه به حالُ النّظر الحقيقيِّ إلى الطَّريقة، والمُشبَّهُ حالُ العِلْمِ بالانتقامِ مِنَ الأوَّلينَ، وحسَّنَ الاستعارةَ مقابلةُ العِلْمِ بالنَّظر، والنَّظرُ من أقوى وسائلِ العِلْمِ، ومقابلةُ الانتقامِ أوِ العذابِ لسُنَّت، وما عليه التّنزيلُ أبلغُ في التّرهيبِ والتّهديدِ، وأدلُّ على عظيمِ تسبُّبِهم في نزولِ العذابِ بهم، وأبلغُ في الحثِّ على التّخلّي عن الشِّركِ، والتَّحلّي بالتَّوحيدِ.

دلالةُ الفعلِ المُضارِعِ:

مـعـرفـةُ سنَّةِ الأولـيـن حـجّـةٌ قـائـمـةٌ وبـرهـانٌ على العَذاب

على القولِ بأنَّ: ﴿يَنظُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ﴾ مِنَ النَّظر بمعنى الانتظار: فإنَّ القرآنَ عبَّر بالفعلِ المُجرَّدِ؛ إشارةً إلى سرعةِ الانتقامِ مِنَ الماكرِ المُتكبِّرِ[3]، إبلاغًا في بيانِ عِظَمِ ما يرتكبونه في حقِّ اللهِ ورسولِه ورسالتِه، ونُظِم معنى هذا الفعلِ مضارعًا؛ نظَرًا إلى ما يتجدَّدُ منهم مِن نفورٍ واستكبارٍ ومكرٍ؛ فكُلَّما تجدَّدَ منهم شيءٌ يدلُّ على ذلك كانوا في منزلة مَن ينتظرُ المذكورَ، وإشارةً إلى قوّةِ عِلْمِ المشركينَ بسُنَّةِ الأوَّلينِ؛ كأنّهم يُجدِّدون ذِكْرَه فيما بينَهُم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 236.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 236.

علّةُ استعمالِ لفظ ﴿سُنَّتَ﴾:

مَـن حـذا حَـذوَ المُعـذَّبين فإنَّما اختارَ نهايتَهم

﴿سُنَّتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ﴾: مفعولٌ به، وإنّما عُبِّر بـ(السُّنَّة)؛ إبلاغًا في ترهيبِ المُشْركين ووعيدِهم بحُلولِ العذابِ بهم؛ بما في هذهِ الكلمةِ مِنَ الإشارةِ إلى التَّجاذُبِ والتَّآلُفِ بينَهُم وبينَ العذابِ الذي عُذِّبَ به الأوَّلون، وإلى سُرْعةِ نُزولِ العذابِ بهم، وإلى كمالِ اقتدارِ اللهِ علَى ذلكَ؛ لأنَّ "السّينَ والنّونَ أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ؛ وهوَ جرَيانُ الشّيءِ واطِّرادُه في سُهولةٍ"[1]، وفيه أيضًا: إشارةٌ إلى أنَّهم يَستحقونَ مِثْلَ عذابِ الأوَّلينَ في الجِنْسِ والصِّفةِ؛ لجَريانِهم على حَذوِهم، واسْتنانِهم بهم.

دلالةُ حذفِ المُضاف:

اتّـحـادُ المَـصيرِ لـلـمُـخـالـفـينَ يُسقطُ التّشبيهَ والتّمثيل

حُذِف المضافُ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ﴾، وهو حذفُ مضافٍ مِن قبلِ المُستثنى، أي: إلّا مِثْلَ سُنَّتِ الأوَّلينَ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ [يونس: 102][2]، والجملةُ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه ﴿سُنَّتَ﴾ مقامَه أدلُّ على التّرهيبِ والتّهديدِ المناسِبِ للسّياق؛ فكأنَّهم لا يلقونَ مِثْلَ سنّت الأوّلين، بل يلقَونَ سُنَّت الأوَّلين نفسَها؛ وهذا يعني كمالَ مُطابقةِ حالِهم لحال الأوّلينَ في الشِّرْكِ والعِنادِ.

نكتةُ استعمالِ مفردة ﴿ٱلْأَوَّلِينَۚ﴾:

الـتَّـلـويـحُ بالعذابِ تلوينٌ في الـتّرهـيـب والتّخويف

أشارَ النّظمُ الكريم باختيار مفردة (أوّلَ) في قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ﴾ إلى أنَّ العذابَ الواقعَ على المُشركينَ هو كالعقابِ الواقعِ على الأوّلين، فهم أتَوا ما أتى به الأوَّلون منَ التّكذيبِ والكُفرِ والجُحودِ والصَّدِّ عن دعوةِ المُرسَلين، فاستحقّوا بذلك العذابَ نفسَه، فكان ذكرُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَۚ﴾ مُشتمِلًا على هذه النُّكتة، بالإضافةِ إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/ 61.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.

الإيماء إلى أنَّهم الآخِرونَ، فهو تلويحٌ بالعذابِ والعقابِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أهميَّةِ أخذِ العِبرة مِن حالِ السّابقينَ؛ لأنَّ المدبّرَ الحكيمَ يوقِعُ عَذابَهُ على وفقِ سُنّتِهِ في خلقِهِ.

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها:

إضافَةُ ﴿سُنَّتَ﴾ إلى لفظِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ للتّعريفِ بهذه السُّنَّة، وهي على تقدير حرفِ (في)، أي: سُنَّةَ اللّه في الأوّلينَ بتعذيبِ مُكذِّبيهم، وهي مِن إضافةِ المَصدرِ إلى مَفعولِهِ[1]، وفي الإضافةِ دلالةٌ على العَهد الَّذي يَعرفُهُ المخاطبونَ بما جرى للأمَم السّابقة التي كذّبتْ رُسُلَ ربِّها.

بلاغةُ القَصْرِ ودلالتُه:

الـقَـصْـرُ حَـسْـمٌ وتحديدٌ وإرشادٌ وتهديد

جاءَ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على أسلوبِ القصر، وطريقُهُ النَّفيُ المُفادُ بـ(الاستفهامِ وإلّا)، وهو قَصْرُ الانتظارِ على سُنَّةِ الأوَّلينَ، وهذا قَصْرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ في حالِ المشركينَ، أوِ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ السّياقَ لا يعتدُّ بغيرِ المقصورِ عليه؛ نظَرًا لحالِهم أيضًا، والمشركونَ يُنكرونَ مضمونَ الجملةِ؛ فأُكِّدَ لهم المعنى بالقصر على طريقِ النّفي والاستثناء، أوْ هوَ قصرُ العِلْمِ على الانتقامِ مِنَ الأوَّلينَ أوْ عذابِهم، وهذا ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ غيرَ سُنَّةِ الأوَّلين لا يُنْظَرُ إليه؛ فلا يُعْتَدُّ به؛ لأنَّه كالعدمِ، وأُكِّد لهم الخبرُ بالنَّفي والاستثناءِ؛ لأنَّهم مِن أجلِ نفورِهم واستكبارِهم ومكرِهم السَّيِّئِ في منزلةِ مَن يُنكِرُه جملةً وتفصيلًا، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ على الوجهيْنِ المُحْتَمَلَيْنِ للقَصْرِ.

نوعُ (الفاء) ومعناها:

الإعـلامُ مُقدِّمةُ تحقيقِ السُّنَنِ، والوعيدُ توطئةُ إيقاعِ العَذاب

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فصيحةٌ؛ لأنَّ ما قبلَها لمّا ذكَّر النّاسَ بسُنَّةِ اللّه في المُكذِّبينَ؛ أفْصَح عن اطِّراد سُنَنِ اللّه تعالى في خلْقِه، والتّقديرُ: إذا علِمتَ ذلك فلن تجدَ لسُنَّةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 300.

اللّه تبديلًا، فمعنى هذه الجملة مُسبَّبٌ عن حَصْرِ النَّظرِ أوِ الانتظارِ في الجملةِ السّابقة[1]؛ على جهةِ التَّرَقّي، وهذه (الفاءُ) لبيانِ أنّ ما بعدَها تعليلٌ لِما يُفيدُه الحُكْمُ بانتظارِهم العذابَ مِن مَجيئِه[2]، وإذا كان تعليلًا له فهو مُؤكِّدٌ مُحقِّقٌ له لا محالةَ.

دلالةُ إيثارِ حرفِ (لَن) على غيرِه:

سُنَنُ الله ثابتةٌ لا تَتَحوّل، وقائمةٌ لا تَتَبدّل

آثرَ النَّظمُ استعمالَ حرفِ (لن)، وهو حرفُ نفيٍ ونصبٍ واستقبالٍ، يأتي لنفي المضارعِ نفيًا مؤكَّدًا مُشدَّدًا، وهو آكَدُ من (لا)[3]، وداعي هذا التّأكيدِ العَليِّ مَوْضِعَيْه في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾، هو "اعتقادُ الكَفَرة الجازمُ بأنَّهم لا يتغيَّرون عن حالِهم، وأنَّ المؤمنين لا يَظْهرون عليهم"[4]، فجيءَ بهذا الحرفِ لتأكيدِ نزولِ سنّةِ اللّه فيهم، وأنَّ المؤمنين تكونُ لهم الغلبةُ بما كتبَ اللّه تعالى لهم.

نكتةُ استعمالِ الفعلِ ﴿تَجِدَ﴾ المنفيِّ مادَّةً وصيغةً:

نفيُ الوجودِ أعمُّ من غيرِه وأنفى لسائرِ المُمْكِنات

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ فعلِ الوجودِ ﴿تَجِدَ﴾ مضارعًا مكرَّرًا في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾؛ لأنَّه أبلغُ في تقرير النَّفْيِ من نفي الرُّؤيَةِ أوِ التبدُّل أوِ التّحوُّل؛ بأنْ يُقال: (فلن ترى ولنْ تتبدّلَ وتتحوّلَ)؛ لأنَّ ما عليه التَّنزيلُ نفيٌ للوجودِ من أساسِه؛ فلا يُدْرَكُ الإثباتُ بحاسَّةٍ أوْ بعقلٍ أوْ بغيرِهما، فنفيُ الوجودِ أعمُّ من غيرِه.

ودليلُ النَّفْيِ المستمرّ؛ أنَّه كلَّما تجدَّدَ من أحدٍ البحثُ عن وجودِ بديلٍ أوْ تحويلٍ لسنَّةِ اللّه تعالى؛ فلن يجدَ ما يبحثُ عنه، وصورَةُ ذلك نَظْمُ معنى الوجودِ المنفيِّ فعلًا مضارعًا يدلُّ على الاستقبالِ طويلِ الأمَدِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 236، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/ 310 وما بعدها.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 236.

تعيينُ المخاطَب ودلالتُه:

خـطـابُ المـعـيَّن المُـرادِ بـه غـيرُ المـعـيّن يـجـري مَجرى المثَل

الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ في موضِعَيْهِ إمّا أنْ يكون لرسولِ اللّه ﷺ[1]، ويدخلَ فيه جميعُ النّاسِ لعمومِ مضمونِ ما فيه، وإمّا أن يكونَ لغيرِ مُعَيَّنٍ؛ فيَعُمُّ كلَّ مخاطَبٍ كذلك؛ وبذلك يتسنَّى أنْ يسيرَ هذا الخبرُ مسيرَ الأمثالِ، وفي هذا تسليةٌ للنّبيِّ ﷺ، وتهديدٌ للمشركينَ[2]، وآثرَ النّظمُ الكريم الانتقالَ من أسلوبِ الغيبةِ إلى أسلوبِ الخطاب؛ لتقريرِ أمرٍ عامٍّ عمومَ الشُّمول والاستغراقِ، ولذا لم يقل (فلن يجدوا...).

دلالةُ الإضافةِ:

سنّةُ الأولين هي سنّةُ الله فيهم

أُضيفَ لفظُ ﴿لِسُنَّتِ﴾ إلى اسم الجلالة المُهيمنِ على الأسماء والصّفات كلِّها؛ لبيانِ عظمةِ تلك السُّنَّة، وأنَّها التي شرعَها اللّهُ، وحكَم بها؛ وهذا تمكينٌ لمعنى جملتَي النَّفْي، ونلحظُ أنّه في الجملة السّابقة ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ أضافَ لفظ ﴿سُنَّتَ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾، وعندما تغيّرَ الخطابُ منَ الغيبةِ إلى الخطاب أضافَها إلى ذاتِه الجليلة، والسرُّ في ذلك أنَّ الحديثَ مع المشركينَ الَّذين يُنكرونَ أنَّها سُنَّةُ اللّه في الأوَّلين، فعبَّر عنها بأنّها ﴿سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾، ولمّا انتقل الخطابُ إلى النّبيّ ﷺ والمرادُ به أمّتُهُ أيضًا أضافَ السّنَّة إلى ذاته؛ لأنّهم يؤمنونَ بذلك، وبهذا عرَفنا أنَّ سُنَّةَ الأوّلينَ عبارةٌ عن سُنّتِه فيهم وأنَّ سُنَّة اللّه هنا هي سُنّتُهُ فيهم، بقي أنَّ سُنَّةَ اللّه عبارةٌ عن عادتِهِ الجاريةِ في تعذيبِ المكذّبين ونزولِ العذاب بهم، فيكونُ تسميةُ العذاب المتكرّرِ الحصولِ بالأقوام المكذِّبة مثلَ السُّنَّةِ التي تتكرّر والطريقةِ التي تستمرُّ، والعادةِ الجارية، فالتّعبيرُ استعارةٌ تصريحيّةٌ فيها شيءٌ منَ التّهكُّم والاستخفاف بهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 484.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 337.

نكتةُ اختيار اسمِ الجلالةِ:

سنَّةُ الله تعالى تُحيطُ بها هَيبةُ الثّباتِ وكبرياءُ التّحقُّقِ

اختير اسمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ في موضعَيْهِ؛ تعليلًا في المعنَى لحُكْمِ الجملتيْنِ؛ فاسْمُ الجلالةِ نَصٌّ في الألوهيَّة؛ لأنّه الجامعُ لجميعِ معاني الأسماءِ والصِّفاتِ التي نعلمُها والتي لا نعلمُها؛ فكمالُ صفات الله تعالى مطلقةٌ لا تتناهَى؛ فمَن ذا الذي يَستطيعُ أنْ يُبدِّلَ سُنَّةَ الملِكِ الأعظمِ أوْ يُحوِّلَها؟ مع ما فيه من توريثِ الهَيبةِ في نفسِ المُخاطَب.

نكتةُ استعمالِ (التّبديل) وتنكيرِها:

مَن يُهِنِ الله فما له مِن مُكْرِمٍ؛ وإنْ كانوا أهلَ الأرضِ جميعًا

لفظُ ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾ مفعولٌ لفعلِ ﴿تَجِدَ﴾ المنفيِّ في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾؛ واستُعمل هذا اللّفظ؛ لبيانِ نفي أنْ يقومَ مقامَ العذابِ الثَّوابُ، والمعنى: لا تقَع الكرامةُ في موقِعِ العقابِ، والتَّبديلُ مصدرُ الفعلِ الرُّباعيِّ (بدَّلَ) على وزنِ (فَعَّلَ)، وهو أقوى في معناه من مصدرِ الثّلاثيِّ؛ لأنَّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنَى غالبًا؛ وقوَّةُ المعنى في التَّبْديلِ صورةٌ لتمكُّنِ تحقُّقِ سُنَّةِ اللّه، وليس المرادُ نفيَ ما زادَ على أصلِ الفعلِ، بلِ المرادُ نفيُ الأصلِ والزّيادةِ، ونُكِّر لفظُ ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾؛ للدَّلالةِ على العموم، أي: فلن تجدَ لسُنَّت اللّه تبديلًا في كلِّ العُصورِ والأمصارِ والأجناسِ؛ ولو مرَّةً واحدةً؛ فهو سبحانَه القاهرُ القادرُ على إمضاءِ سُنّتِه.

علَّةُ الوَصْلِ بالواوِ:

عطَفتِ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ ما بعدَها على ما بعد الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ﴾؛ للتّناسُبِ بينهُما إخبارًا، والجامعُ بين الجملتينِ عقليٌّ لاتّحادِهما، وغرضُ العطفِ التّرقّي منَ التّبديلِ لسُنَّة اللّه إلى التّحويلِ لها؛ إذ لا يلزمُ من عدمِ التّبديلِ عدمُ التَّحويل.

نكتةُ استعمالِ (التّحويل) وتنكيرِها:

سـنَّـةُ الـلـه لا تـتـخـلَّـفُ ولا تَختلِفُ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿تَحۡوِيلًا﴾ في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾؛ لبيانِ نفي أنْ ينقُلَ اللّهُ العذابَ مِنَ المشركينَ المُكذِّبينَ إلى غيرِهم، والمعنى: أنَّه تعالى لا يتركُ عقابَ الجاني؛ لأنَّ التَّحويلَ نقلُ الشَّيءِ مِن مكانٍ إلى غيرِه؛ وكأنَّه مشتقٌّ مِنَ الحَوْل؛ وهوَ الجانبُ[1]، ولمّا كانت زيادةُ اللّفظ تدلُّ على زيادةِ المعنَى غالبًا، وكانَ قولُه: ﴿تَحۡوِيلًا﴾ مصدرَ الفعلِ المُضَعَّفِ (حَوَّلَ)، الذي هو على وزنِ (فَعَّلَ)، فكانَ أبلغَ مِن مصدرِ الثُّلاثيِّ المُجرَّدِ (حولًا)؛ كانَ قولُه: ﴿تَحۡوِيلًا﴾ صورةً لكمالِ تحقُّقِ سُنَّةِ الله ﷻ في واقعِ النّاسِ، ونُكِّر لفظُ ﴿تَحۡوِيلًا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّقليل والعموم، أي: ولنْ تجدَ لسُنَّة الله أدنَى صورةٍ مِن صورِ التَّحويلِ، ونفيُ الأدنى هنا يلزمُ منه نفيُ الأعلى؛ فلا رادَّ لقضائِه إذا وقعَ.

نكتةُ تقديمِ (الجارّ والمجرور) على المفعول:

تعذيبُ المكذِّبين وعيدٌ لا يتخلّفُ

قدَّمَ النّظمُ الكريم ﴿لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾ على المفعول ﴿تَبۡدِيلًا﴾ في الموضع الأوّل، وعلى ﴿تَحۡوِيلًا﴾ في الموضعِ الثّاني من قوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾؛ للاهتمام والعِنايَة بكونِ التّبديلِ والتّحويلِ المنفيَّين هو لسنّة الله تعالى، كما أفاد التّقديمُ تخصيصَ عدمِ التّبديل والتّحويل لسنّة الله وطريقته في التّعامُلِ معَ المكذِّبينَ والعُصاة، لأنَّ ذلك راجعٌ إلى كلامِهِ الأزليِّ الذي لا يتخلّفُ وقضائِهِ بتعذيبِ الكاذبينَ واستئصالِهم.

بلاغةُ الكناية:

مِن شأنِ الحقِّ أنْ يُقنع العقلَ ولو كانَ باطلًا

لمّا كانَ كلٌّ مِنَ التّبديلِ والتَّحويلِ هو المقصودَ بالنَّفْي كانَ نفيُ وُجْدانِ التَّبديلِ والتَّحويلِ عبارةً عن نفي وجودِ التَّبديلِ والتَّحويلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 338.

بالطَّريقِ البُرْهانيِّ[1]، أي: لمّا نفى الفعلَ نفى مفعولَه، وسلكَ النّظمُ هذا المسلَكَ؛ لإقامةِ دليلٍ على نفي وجودِها؛ ليُحقِّقَ للمُتلقّينَ الإقناعَ؛ ففيه دعوتُهُم إلى النَّظَرِ في الكَوْنِ فيما مَضَى وفيما هو كائنٌ، وفيما سيكونُ وسوفَ يكونُ؛ ليروا حقيقةَ ما يُقرِّرُه القرآنُ العظيمُ في هاتيْنِ الجملتيْنِ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾؛ هل هي حقيقةٌ ثابتةٌ؟ أوْ هل يعترِضُها شكٌّ؟.

نكتةُ تَقْديمِ التّبديلِ على التَّحويل:

تقْديمُ مفردةِ ﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾ على ﴿تَحۡوِيلًا﴾ في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ جارٍ على جهةِ الكَشْفِ عنِ الغضَبِ عليهم؛ فعدمُ التَّبْديلِ أشدُّ مِن عدمِ التَّحْويلِ؛ فالتّبديلُ جعْلُ الثّوابِ موضِعَ العقابِ، والتَّحْويلُ تركُ العقابِ، كما أنَّ التّبديلَ جعلُ الثّواب بديلًا عنِ العقاب، وهذا لا يستلزمُ عدمَ تحوُّلِ العذاب عنهم إلى غيرهم، فاحترسَ النّظمُ بهذا العطف عن عدمِ تحوُّل العذاب عنهم فضلًا عن تبدُّلِه إلى ثواب.

بلاغةُ التّكرار ونكتَتُهُ:

في استقلالِ كلِّ نفيٍ إحسانٌ للمخاطَبين وإنذارٌ للمعاندين

آثر النَّظمُ الكريمُ تَكرارَ جملة: (لن تجد لسنت الله) مرّتين؛ فقال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ دونَ أنْ يقول: (فلن تجد لسنت الله تبديلًا ولا تحويلًا)؛ فخصَّ كلًّا مِنَ التَّبْديلِ والتَّحْويلِ بنفيٍ مستقلٍّ؛ احتفالًا بكلٍّ منهما؛ إبلاغًا في تقريرِه؛ لأنَّ في الاستقلالِ تأكيدًا لانتفائِهما؛ وكأنَّ كلًّا مِنَ التَّكرارِ والاستقلالِ يُنادي عليهم نداءً أخيرًا؛ أنِ ارْجِعوا عمّا أنتم فيه مِنَ الكُفرِ والشِّركِ والعِنادِ والإصرارِ.

كما أنَّه حسَّنَ التَّكرارَ قولُه تعالى: ﴿تَحۡوِيلًا﴾؛ لأنّه غيرُ:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 481.

﴿تَبۡدِيلٗاۖ﴾، وغرضُ التَّكرارِ في الآيةِ تمكينُ المعنَى وتوكيدُ تحقيقِه، وأنَّ السُّنَّةَ آتيةٌ لا محالةَ لهم في أنفُسِ المُتلقّينَ عامَّةً، والمشركينَ خاصَّةً؛ لشديدِ افتقارِهم إليه، وإلى مقتضاهُ؛ مِنَ الإسراعِ إلى التَّخلّي عنِ الشِّرك، وإلى التَّحلّي بالتَّوحيدِ والإيمانِ؛ إبلاغًا في تَرْهيبِهِم، ثمَّ في ترغيبِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستكبارُ والاستنكافُ:

الاستكبارُ إعراضٌ مع غرورٍ، والاستنكافُ إعراضٌ عنِ المقصودِ

يُفرَّقُ بين (الاستكبار والاستنكاف) بأنَّ في الاستنكاف معنَى الأنَفَة مع تركِ القولِ الحقِّ فيكون قوليًّا، وقد يكونُ الاستكبارُ طلَبًا للكِبْر مِن غيرِ أنَفَة مع تركِ التّصديقِ بالحقّ فيكون قلبيًّا؛ والدّليلُ على التَّغايُرِ بينهما قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ﴾ [النساء: 172]، أي: يستنكف عنِ الإقرار بالعبوديَّة، ويستكبر عنِ الإذعان بالطّاعة، والاستكبارُ مأخوذٌ مِنَ الكِبْرِ الذي هو العَظَمةُ، وأصلُ مادَّته يدلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، والاستنكافُ مأخوذٌ مِنَ النَّكَفِ؛ جمعِ نَكَفَة؛ وهي غُدَّةٌ في أصل اللَّحْي، يُقال: إبلٌ مُنكِّفة: ظهرتْ نكفاتُها، ثمَّ قيسَ على هذا فقيل: نَكِفَ مِنَ الأمر، ومعنى القياس في هذا: أنّه لمّا أنِفَ أعْرَضَ عنه، وأراه أصل لَحْيِه[1].

المكرُ والكَيد:

المكرُ تدبيرٌ عقليٌّ والكيدُ تدبيرٌ فعليٌّ

(المَكْرُ) تدورُ مادَّتُه على الاحتيالِ والخِداعِ ففيه خفاءٌ، و(الكيدُ) تدورُ مادَّتُه على معالجةِ لشيءٍ بشِدَّةٍ فيكونُ بالأفعال أليقَ، ثم يتَّسِعُ البابُ؛ قال أهلُ اللُّغة: المكرُ مِثْلُ الكيدِ في أنّه لا يكونُ إلّا معَ تدبُّرٍ وفِكْرٍ؛ إلّا أنَّ الكيد أقوى مِنَ المكر، والشّاهدُ أنَّه يتعدَّى بنفسه، والمكرُ يتعدَّى بحرفٍ؛ فيُقال: كادَه يَكيدُه، ومكَر به، ولا يُقال: مكره،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر)، و(نكف)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 50.

والذي يتعدَّى بنفسه أقوى، ويجوزُ أنْ يُقالَ الكيدُ: ما يقرّبُ وقوعَ المقصود به مِنَ المكروه، والمكرُ: ما يجتمع به المكروهُ؛ مِن قولِك: جاريةٌ ممكورة الخَلْق، أي: مجتمعة اللَّحْم غيرُ رَهْلةٍ، والمكرُ قد يكون ابتداءً مِن غيرِ عقْدٍ وعهْدٍ[1].

الحَوْق والحَوْط:

بـينَ الـحَـوْطِ والـحَوْقِ عمومٌ وخـصـوصٌ مِـن وجهٍ

(الحَوْطُ) يدورُ على كونِ الشّيء يُطيف بالشّيء، و(الحوقُ) يَقْرُبُ منه؛ فذلك مناطُ التقاءٍ واتِّفاقٍ بينهما، والفرقُ بينهما أنَّ في الحَوْطِ معنَى الحِفْظِ والتَّعَهُّدِ بخلافِ الحوْق؛ لذا يُقال: حاطَه اللّهُ حَوْطًا وحياطةً: صانَهُ وكَلَأه ورَعاهُ، ولا يقال حاقَه الله، واستعمالاتُ الحَوْقِ في اللُّغةِ تُفْهِمُ أنَّ في الحَوْقِ اقترابًا قويًّا بينَ الطَّرَفَيْنِ لنزول المكروه بخلافِ الحَوْط.

الأوّل والسّابق:

الأوّلُ أعمُّ مطلقًا مِنَ السّابق

(السّابِقُ) في أصلِ اللُّغة يَقْتَضي مَسْبوقًا، والأوَّلُ: لا يقتضي ثانيًا؛ ألا ترى أنَّك تقولُ: هذا أوَّلُ مولودٍ وُلد لفلانٍ؛ وإنْ لم يولَد له غيرُه، وتقولُ: أوَّلُ عبْدٍ يملكُه حُرٌّ؛ وإنْ لم يَملك غيرَه، ولا يَخرج العبدُ والابنُ مِن معنى الابتداء[2]، وقد يُطلق الأوّل ويقتضي وجودَ ثانٍ، أوْ آخر، فيكون الأوّل مقابلًا للآخِر، كما قال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ [الواقعة: 39 - 40]، وأمّا السّابقُ فيُقابلُهُ المَسبوقُ، كما أنَّ الاتّصافَ بالأوليَّة قد يكون بفعلٍ أوْ لا، بخلافِ الاتّصاف بالسّابقيّة، فهو مقترنٌ بالفعل.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر) و(كيد)، والعسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 508 - 509.

(2) العسكري، وبيت الله بيات، الحاوي لمعجم الفروق اللغوية، ص: 270.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 47 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-731-00-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»